

كمال المؤمن في لقاء الله تعالى



أسمى المقامات الإنسانية الشامخة هو عند لقاء الله تعالى، ولا سعادة أكبر للمؤمن من التقرب إلى الله تعالى صاحب الكمال المحمى، والقدرة اللامحدودة، والعلم المطلق، ولا راحة أعلى من اليقين بأنَّ الإنسان لا محالة راجعٌ إلى ربِّه ودودِه رحيم. وقد يُشَرِّر عزٌّ وجلٌّ المؤمنين بلقائه، فقال: (وَاتَّقُوا إِنَّمَا يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ كُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشَّرَ الرَّمْؤُومَيْنَ) (آل بقرة/223). ووعد الدين يرجون لقاءه بأنَّ لهم ما يأملون (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّمَا أَجَلَ اللَّهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (آل عمران/5). ووصف تعالى المكذب بين بلقائه بأنَّهم خاسرون وغير مهتمين (وَقَدْ خَسِرَ الظَّاهِرَ كَذَّابُوا بِلِقَاءَ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (يونس/45). وأنَّ الكافرين بلقائه هم في الحقيقة يائسون من رحمة الله، ولهم عذابٌ أليم (وَالظَّاهِرَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَاءَهُمْ أُولَئِكَ يَنْهَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (آل عمران/23). وأنَّه تعالى سوف يكلهم إلى أنفسهم ويذرهم في عماهم (فَنَذَرَ اللَّهُ الظَّاهِرَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ فِي طُفُونَهُمْ يَعْمَمُهُونَ) (يونس/11). أمَّا أهل الإيمان والخشوع فإنَّهم على يقينٍ بلقاء ربِّهم وأنَّهم إليه راجعون (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّدَرِ وَالصَّلَادَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِنَّمَا لَعَلَى الْخَاطِئِينَ * إِنَّمَا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو

رَبِّهِمْ وَأَنْزَهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (البقرة/ 45-46). بل وإن قلوبهم وجلةٌ وفرحةٌ برجوعهم إليه سبحانه تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتَوْنَ مَا آتَوْا وَفُلُوْبُهُمْ وَجِلَّةُ أَنْزَهُمْ إِلَيْ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) (المؤمنون/ 60). لأنّهم على يقين أنَّ الله تعالى لم يخلقهم عبثاً (أَفَحَسِبُوكُمْ أَنَّهُمْ خَلَقْنَاكُمْ عَبْدَنَا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون/ 115). بل يعلمون علم اليقين أنَّه اصطنعهم لنفسه (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) (طه/ 41). لذا تكون نفوس المؤمنين مطمئنةٌ بالرجوع إلى ربّها (إِنَّ إِلَيْ رَبِّكَ الرُّجُوعَ) (العلق/ 8)، راضيةٌ بالدخول في عباده الصالحين والوفود إلى جنَّة لقائه (يَا أَيُّهُمْ أَنْتُمْ إِلَيْ رَبِّكُمْ رَاضِيَّةُ مَرْضِيَّةُ فَادْخُلُوهَا الْجَنَّةَ الْمُطْمَئِنَّةَ * ارْجِعُوهُمْ إِلَيْ رَبِّكُمْ رَاضِيَّةُ مَرْضِيَّةُ فَادْخُلُوهُمْ فِي عِبَادِي * وَادْخُلُوهُمْ جَنَّةَ رَبِّكُمْ) (الفجر/ 27-30).

لقاء الله تعالى على نحوين، لقاءٌ في الدنيا ولقاءٌ في يوم القيمة عند البعث والحساب. والكلام هنا يتمحور حول لقاء الله في الدنيا قبل الآخرة. وليس المقصود بلقاء الحقٌّ تعالى اللقاء الحسي ورؤيته تعالى بالبصر المادي، لأنَّ الله تعالى ليس بجسم، ولا يحدُّه مكان، ولا يُرى بالعين، فإنه: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام/ 103). بل المراد به اللقاء المعنوي، بمعنى حضوره تعالى الدائم في حياتنا، وعدم الغفلة عنه أبداً، والتوجُّه إليه باستمرار، ومشاهدة آياته وآثار قدرته تعالى في كلِّ شيءٍ. فلا نعبد غيره، ولا ندعه سواه، ولا نطلب حواجنا إِلا منه. فالإنسان عندما يدرك أنَّ الله تعالى خالقه، ومالك كلِّ شيء، وببيده الأمر كلَّه، وهو في السماء إله، وفي الأرض إله، وهو ربُ العالمين، فمن الطبيعي أن يتوجُّه إليه بالعبودية له والتسليم.

الوصول إلى هذه المنزلة الإنسانية الرفيعة، من لقاء الحقٌّ والحضور في محضره إنَّما يصبح ميسوراً في حالةٍ واحدةٍ فقط، وهي عندما يصبح الله تعالى حاضراً دائماً في حياة الإنسان، فيرى الإنسان خالقه حاضراً موجوداً في جميع شؤون حياته، ويشاهد نفسه دائماً في مشهد الله العظيم وفي ساحة حسابه يوم القيمة. وكيف لا يكون ذلك وهو تعالى معه أينما ولَّ وجهه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَإِنَّمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (ال الحديد/ 4). وهو أقرب إليه من حبل الوريد (وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْهِ مَنْ حَبَلَ إِلَيْهِ وَسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسِّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (ق/ 16). وهو شاهدٌ على كلِّ حركة يقوم بها وكلِّ لفظة ينطق بها، يقول تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتَلَوُ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنْتُمْ عَلَيْكُمْ شُهُودًا) (يونس/ 61).

فإنسان إذا أراد أن يحصل على مقعد صدقٍ عند الله، ينبغي له في البداية أن يرى الله حاضراً وناظراً إليه في جميع شؤونه، ثم بعد ذلك يؤدّي على أساس هذا الشهود جميع الأعمال خالصةً لوجه الله. فمما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا ذر (رضي الله عنه) أن قال له: «يا أبا ذر إنك من أهل البيت، وإنني موصيك بوصيّة فاحفظها، فإنها جامعة لطريق الخير وسبله، فإنك إن حفظتها كان لك بها كفلان، يا أبا ذر اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإن الله يراك، وأعلم أن أول عبادة الله المعرفة به». وهذه الحالة تحصل للإنسان في هذه الدنيا نتيجة الطهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس. وقد سأله رجلٌ يقال له ذعلب أمير المؤمنين (عليه السلام): هل رأيت ربّك؟ قال (عليه السلام): «وilyك يا ذعلب ما كنت أعبد ربّاً لم أره». فقال: يا أمير المؤمنين: كيف رأيته؟ قال (عليه السلام): «وilyك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأ بصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان».